

ليالي الصالحين وذآب العابدين

✕

سبحان مقلب الليل والنهار خالق الظلمات والنور وأصلي وأسلم على النبي المختار صاحب الأنوار وعلى آل بيته وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.

أما بعد

مقدمه

في الليل تجد كثيرا من الأحوال تتغير مع تغير الناس فمنهم من يخلوه بهواه ومنهم من يضيعه في غناه ومنهم من يتخلص به في لهواه ومنهم من يبكي في ظلماته. والليل منفذ للطالحين وخلوه للصالحين فإذا خلا كل مشغول بمساعاه وكل حبيب بحبيبه تجد الصالحين قاموا وقد نصبوا أقدامهم بين يدي الله ووضعوا جباههم على الأرض تذللًا وانكسارًا للواحد في علياه . والسؤال الذي يسأله البعيدين عن هذه الدنيا ونسمة الزهاد وطمع العباد هو: هل من الممكن أن يصير الليل المظلم مُشرق الأنوار؟ أو يتعطر الصمت المطبق بآيات القرآن؟.

الجواب

نعم، يمكن أن يتبدد السكون الموحش بانحناء الأصلاب وسجود الجباه، وبتبلل الجفاف اليابس بدموع الأسحار، وخشوع القلوب، وتركية الأنفس زكية، وذكر الألسن، وسهر الأعين، وسجود الجباه ، وتجافي الجنوب .

إنه مساء الصالحين وليل العابدين. إنها همة المتجهدين ولذة المتضرعين. إنه أنس المنفردين وحب المخلصين. إنها مجاهدة السالكين ومكابدة المرابطين ؛ الله أكبر، ما أروع هذا الليل وما أحبه وما أمتعته وما أروع.

أين هذا الليل من نوم طويل وركون ثقيل وغفلة تامة ؟ شتان بين النور والظلمة، وبين السمو والدنو، وبين الثرى والثريا. إنه قيام الليل أيها النائمون، اسمعوا النداء ممن عمروه بالطاعات، وملؤوه بالصلوات.

فهذا "زمة العابد" كان يقوم فيصلي ليلا طويلا فإذا كان السَحَر نادى بأعلى صوته : "يا أيها الركب المعرسون، أكُل هذا الليل ترقدون؟ ألا تقومون فترحلون"، فإذا طلع الفجر نادى: "عند الصباح يحمد القوم السرى" "صفة الصفوة". 2/229-230

ليلة بينهم

دعني أريك ليلهم، بل دعني وإياك نقضي ليلة معهم. هذا أبو هريرة رضي الله عنه "كان هو وامراته وخادمه يقسمون الليل ثلاثا، يصلي هذا ثم يوقظ هذا" "نزهة الفضلاء". 1/199 فالليل كله صلاة ومناجاة، ودموع وخشوع، وذكر وشكر، والشعار لا للفرش الوثيرة، والنوم اللذيذ.

إنهم الموصوفون بأبلغ قول وأعظم صورة في قوله تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا { السجدة: 61، يرسم القرآن لهم "صورة المضاجع في الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام ولكن هذه الجنوب لا تستجيب؛ لأن لها شغلا عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذ شغلا بربها، شغلا بالوقوف في حضرته، والتوجه إليه في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء "الظلال 2182/5-3182".

لا أنام الله عيني

استمع إلى يزيد الرقاشي وهو يقول: "إذا نمتُ فاستيقظتُ ثم عدتُ في النوم فلا أنام الله عيني"، وتأمل هذا الحوار مع الفراش حيث كان عبد العزيز بن أبي رواد "يفرش له فراشه لينام عليه بالليل، فكان يضع يده على الفراش ويتحسسها ثم يقول: ما أليّنك، ولكن فراش الجنة أليّن منك،

ثم يقوم إلى صلاته. هؤلاء القوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ بما هو أروح منه وأمتع، مشغولون بالتوجه إلى ربهم، وتعليق أرواحهم وجوارحهم به، ينام الناس وهم قائمون ساجدون، ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن ذي الجلال والإكرام "الظلال 5/2578".

ولله در الفضيل بن عياض وهو يعرض وضعاً شعورياً إيمانياً بديعاً؛ حيث يقول: "أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب فإذا تحرك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة.

ولا تنس أنهم كانوا بذلك التعب يتلذذون، وبالقيام يفرحون، وبعيون غير أعيننا إلى الليل ينظرون. فهو عندهم موطن تنتعش فيه الأرواح، وتبتهج وترتاح، وتتقلب بين مسرات وأفراح، وتكثر من المساءلة والإلحاح. فهي قائمة بين يدي خالقها، عاكفة على مناجاة بارئها، تتنسم من تلك النفحات، وتقتبس من أنوار تلك القربات، وما يردُ عليها في تلك المقامات "الصلاة والتهجد ص103".

ولذا جاءت وصاياهم وقد عملوا، وتذكيرهم وقد اعتبروا، وحثهم وقد سبقوا، فها هو الحسن ينادي بكم قائلاً: "كابدوا الليل، ومدوا الصلاة إلى السحر ثم اجلسوا في الدعاء والاستكانة والاستغفار" "الصلاة والتهجد ص303".

وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ

وقال أبو محمد الجبري: "قصدتُ الجنيد فوجدته يصلي فأطال جداً، فلما فرغ قلت: قد كبرتَ وَوَهَنَ عَظْمُكَ وَرَقَ جِلْدُكَ وَضَعُفَتْ قُوَّتُكَ وَلَوْ اقْتَصَرْتَ عَلَى بَعْضِ صَلَاتِكَ، فَقَالَ: اسْكُتْ، طَرِيقَ عَرَفْنَا بِهِ رَبَّنَا، لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى بَعْضِهِ، وَالنَفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَتَحَمَّلُ، وَالصَّلَاةُ صَلَاةٌ وَالسُّجُودُ قُرْبَةٌ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}، وَمَنْ تَرَكَ طَرِيقَ الْقُرْبِ يَوْشِكُ أَنْ يُسَلَّكَ بِهِ طَرِيقَ الْبَعْدِ" "الصلاة والتهجد ص903".

ويجدد أبو سليمان الداراني هذا الفقه، ويبين هذا الشعور بقوله: "أهل الليل بليهم ألد من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، ولو لم يعط الله تعالى أهل الليل في ثواب صلاتهم إلا ما يجدون من اللذة فيها لكان الذي أعطاهم أفضل من صلاتهم" "الصلاة والتهجد ص. 311".

في ظلمة الليل للعباد أنـــــــوار ... منها شمس ومنها فيه أقمار
تسري قلوبهم في ضوئهن إلــــى ... ذاك المقام ومولاهم لهم جار
تخالهم ويك موتى لا حراك بهم ... وهم مع الله إقبال وإدبــــار
إن ينطقوا فتلاوات وأذكــــار ... أو يسكتوا فاعتبار وأفكــــار
مستيقظين لذي الذكرى فكلهــــم ... لذا التذكرِ أسمع وأبصــــار
ولم يستقلوا القيام لأن النفوس راغبة، والنوايا صادقة، والخشية غامرة، "وإذا قوي الباعث
وكثرت الرغبة، وعظمت الرهبة، نشطت النفس وخف الجسد، وذل الصعب، وهانت المؤنة"
"الصلاة والتهجد ص513".

وإليك الترجمة العملية لذلك فيما قاله رجل لحممة العابد : **"ما أفضل عملك ؟ فقال: "**ما أتتني صلاة قط إلا وأنا مستعد لها ومشتاق إليها، وما انصرفت من صلاة قط إلا كنت إذا انصرفت منها أشوق إليها مني حيث كنت فيها، ولولا أن الفرائض تقطع لأحببت أن أكون ليلي ونهاري قائما راکعا ساجدا **" الصلاة والتهجد ص613"**.

شوق و ظمأ

فذلك هو الشوق والتعلق والذوق والتعبد. وتتصل القلوب بالله؛ عندما تراها ظامئة للعبادة، ترتشف ولا ترتوي، تزيد ولا تحيد. وتتلذذ النفوس بالذكر، وتغتترف ولا تنصرف، تنصب ولا تتعب، إذ "كان صلة بن أشيم يقوم الليل حتى يفتر فما يجيء إلى فراشه إلا حبا" الصلاة والتهجد ص882".

ويقتدي المؤمنون حقاً في قيام الليل بسيد الخلق [x] . وقد خاطبه ربه: {يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} وناداه مولاه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ}، فقام ليله بلا مزيد عليه وسئل عن إتياب نفسه وقد تورمت قدماه فقال [x] - وما أعظم ما قال - : "أفلا أكون عبداً شكوراً ."
ومن هنا جاء وصفهم بلسان الحسن حيث قال: "صحبت أقواما يبيتون لربهم في سواد هذا الليل سجداً وقياماً، يقومون هذا الليل على أطرافهم، تسيل دموعهم على خدودهم، فمرة ركعاً ومرة سجداً، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، لم يملؤا كلال السهر لما قد خالط قلوبهم من حسن الرجاء في يوم المرجع، فأصبح القوم بما أصابوا من النصب لله في أبدانهم فرحين .
ويما يأملون من حسن ثوابه مستبشرين، فرحم الله امرأً نافسهم في مثل هذه الأعمال، ولم يرض من نفسه لنفسه بالتقصير في أمره باليسير من فعله، فإن الدنيا عن أهلها منقطعة، والأعمال على أهلها مردودة " ثم يبكي حتى تبتل لحيته بالدموع " "التهجد وقيام الليل ص
".340-341 وحالهم يطول وصفه، والسعيد من اقتدى بهم، ولي ولكم أقول: "هكذا كانوا..
فهل نكون ؟".

لعلنا نموت ونحن سجد بين يدي الغفور الودود.